التأشيرة

كمال خلادي ـ المغرب

(غرفة نظيفة بقليل من الأثاث، سرير توجد بحواشيه بعض الأدراج، طاولة قصيرة عليها تلفاز، هاتف مركون في زاوية، على الحائط صورة بالأبيض والأسود لزوجين بثياب العرس... نشتم رائحة نفتالين مختلطة بمعطر للجو، امرأة تجلس على كرسي متحرك تشاهد التلفاز، يبدو أنها تستمتع بما تشاهده، بعد قليل تحرك الكرسي باتجاه الهاتف، تطلب رقما، تتكلم)

أين قررتم تناول العشاء؟ إنه مطعم رائق... سيكون ممتعا أكثر لو حصلتم على تلك الطاولة القريبة من عازف البيانو، رائع جدا! هل هو نفسه المغني الأسود؟ كم الساعة الآن؟ لكن لا تنصرفا قبل الساعة الحادية عشرة، سيغني «يا له من عالم جميل»[1]، نعم، سيغنيها على ضوء الشموع فقط، إياك أن تفلت الفرصة، لم أسمع أبدا صوتا أعذب من صوته، أتدري؟ من أجل تلك الأغنية صرت أعشق كل ما هو أسود (تضحك) سأدعك الآن، استمتعا بوقتكما.

(1) أغنية What a wonderful world لـ «لويس أرمسترونغ»

(تضع السماعة بهدوء، لا زالت ملامح ابتسامة ترتسم على شفاهها)

إنه ابني، خرج للعشاء رفقة زوجته، لقد تزوجا حديثا، قبل شهر تحديدا، حالت بعض الظروف دون أن يستمتعا ببعضهما خلال هذه المدة، لكن الأمور تتحسن الآن، وستتحسن أكثر، أنا متأكدة، هناك دائما باب يفضي إلى الأشياء الجميلة، قد نخطئه أحيانا لكننا حتما ننتهي إليه، المهم ألا نمل...

لقد استغرب كوني أعرف المطعم جيدا رغم أنه يقع في زاوية ضيقة قريبة إلى الإظلام، لا يعرف أن أباه كانت تستهويه تلك الأماكن الهامشية والمهملة، كان يكره تلك المحلات التي غزتها أضواء النيون...

الأذواق عدوى خطيرة، في وقت قصير صرت مثله لا أستحمل البوابات الزجاجية والأماكن المفرطة في النظافة، أصبح حيادها يضايقني، يوما بعد يوم كنت أفهم كيف يمكن للمكان أن يكون باردا ومفتقدا للنداوة، أتذكر أننا كنا نتسكع كثيرا ولا نحس أنفسنا إلا ونحن نقف دون قصد تحت عامود كهرباء فقد مصباحه أو كرسي حديقة أعرج... كنا نضحك لهذا ونستمتع بأننا نلتفت لأشياء لا يلتفت إليها الآخرون، كنا مطمئنين إلى أن المدينة وهبتنا قلبها...في ذلك الوقت كان هذا كافيا

لإشباع غرور زوجين شابين... لقد تذكرت شيئا...

(تدفع الكرسي بخفة نحو الهاتف، تركب رقما، يبدو أنها تكلم أحدا ما)

هل أقاطع شيئا؟ جيد، لدي اقتراح، اسمع، عندما تخرج من المطعم، ماذا تجد قبالتك؟ نعم، وبعد الشارع الطويل، إذا انعطفت يمينا ماذا ستصادف؟ لا، لا دعك من مجلتي الآن، لم أتمم قراءة العدد السابق بعد... نعم وماذا تريد أكثر من قاعة السينما، حسبتك لماحا، ليس هناك أجمل من أن تختما سهرتكما بمشاهدة فيلم سويا، لا، لا تهتم أنا بخير، منذ لحظة فقط كنت أستمتع بمشاهدة الفأر «جيري» والقط «توم»[2]، أقسم أنني بخير، اسمع لا تكن مأساويا، اليوم الخميس، هناك برمجة جديدة... أحيانا لا يهم ما نشاهده بقدر ما يهم أننا نقوم بشيء نحبه مع شخص نحبه، لا تنسَ أن ما نتذكره فعلا هو ما حصل أخيرا، ماذا تجدي سهرة جميلة بنهاية روتينية، قلت ليس لك من خيار.... أقسم أنك لو عدت الآن إلى المنزل لن أفتح لك باب الغرفة، اذهب وابتهج مع زوجتك، سأنتظر رجوعكما لتحدثاني عن الفيلم...

(2) السلسلة الكرتونية الشهيرة Tom & Jerry

(تضع السماعة)

الأحمق، لا يعرف أننا عندما نحب الحياة نذهب إلى السينما... وددت لو قلت له إن تلك القاعة احتضنت أول موعد لي مع أبيه، وددت لو قلت له إن أباه سرق مني أول قبلة إبان فسحة ظلام جادت علينا بها مجريات فيلم لم أعد أتذكر أحداثه من فرط الارتباك الذي ركبني بعدما سقطت أنفاسه فجأة على خدي... من يدري؟ لو يجلسان على نفس المقاعد، لو يقتربان كما كنا نقترب، لو يعرف كيف ينسى رصانته لبعض الوقت.... يا إلهي كم كان جميلا ذلك اليوم الأول، جاءني وسيما جدا، لم أصدق أنه نفس الرجل الذي كان يظهر لي مغبرا وراء الكتب القديمة، كانت تلك أول مرة أشاهده واقفا بطول قامته أمامي، قبل ذلك كنت لا أراه إلا من وراء ذلك الكونطوار الخشبي، كنا نتبادل كلمات قليلة، أسأله عن عنوان كتاب ما، يدمدم ببعض الكلام الذي لا يحسم في وجود الكتاب من عدمه، قبل أن يختفي في الداخل ليعود وهو ينفض الغبار عن الكتاب، عن قصد ربما كان يقرب الكتاب من أنفه، في إحدى المرات وبعدما بدأت زيارتي له تتكرر نبهته إلى خطورة رطوبة الكتب على الجيوب الأنفية، ابتسم وقال لي: للكتب رائحتها،

رائحة الكتب هي ما يحدد ثمنها...

(صمت)

الأحمق لا يقدر ماذا يمكن أن تعنيه أمسية تشاهد فيها فيلما مع من تحب... شباب غفل... ربما كان علي أن أقول له إنني، عندما زرت أباه بعد ثلاثة أيام من ذهابنا إلى السينما وجدته قد أدخل تعديلات على الكونطوار الخشبي بحيث أمكنني الدخول، كان علي أن أقول له كم صرت واثقة بعد ذلك!

(يرن الهاتف، تدفع الكرسي نحوه، تتلقف السماعة)

أهلا يوسف، عذرا عذرا دكتور ظننت أن ابني من يتصل ليقول لي إنه أقتطع تذاكر السينما... نعم لقد أقنعته بذلك، أنت تعرف أنهما مرا بأوقات عصيبة... أنا بخير، الحمد لله، لا أدري كيف تناسى الأمر، عذرا لقد تذكرت، لقد قلت له بأنني سأتولى أمر الاتصال بك، المعذرة مجددا، نعم هناك خبر جديد، أتمنى أن يكون كذلك، هذا الصباح تكلم ابني مع مشغله الفرنسي، قال له بعدما استعلم لدى السفارة إن الأمر يتعلق بخطأ بسيط وأنهم سيستدعوننا لختم التأشيرة، نعم، لقد أكد له أن مسألة الرفض ناتجة عن خلط في الأسماء بيني و بين سيدة أخرى ... هذا تماما ما قاله، نعم يمكنك فعل

ذلك... قال إن الأمر سيتم في بحر هذا الأسبوع، سأعلمه بذلك، ليلة سعيدة، طبعا دكتور، شكراً لجهودك.

(تضع السماعة، يبدو عليها التوتر)

ما كان علي أن أرد، ما كان علي أن أرد... هناك أصوات تأتيك كما لو أنها قادمة من الجحيم... لا أفهم كيف يعطي لنفسه الحق في المهاتفة متى شاء، كيف يقتحم لحظة صفاء تمنيتها طويلا... كيف يثقب بالون الفرح الذي ظللت أنفخه طيلة هذا اليوم، إنه أغبى من أن يفهم أنني أستحق أن أنعم بليلة هادئة بعيدا عن حديث المستشفى والورم والتأشيرة والتحويلات المالية... ميكانيكي الجسم البشري لم يستطع الصبر حتى الصباح للاطمئنان على صفقته... لن يتصور أبدا كم جعلتني كلماته هشة وفارغة، أسئلته الباردة أعادتني لتلك اللحظة التي مد لي فيها ذلك الموظف الغبي جواز سفري بابتسامة صفراء وشفاه تتقيأ جملة مسكوكة [3] désolé، madame, on ne peux pas vous accordez un visa كان كحجر بل كان الحجر نفسه، لقد أمكن له أن يقول ما قاله بكل الحياد الواجب، لم يثره منظر جسدي المتكور

(3) عذرا سيدتي، لا يمكننا منحك التأشيرة.

فوق كرسي متحرك، لم يرتبك لمنظر ركبتي المتورمة ولا للون وجهي الأزرق الممتقع كباذنجانة فاسدة désolé madame, on ne peux pas vous accordez . un visa

الآن أتساءل ما جدوى كل هذا التعب؟ الطبيب يقول إن هناك أملاً أي أمل؟ الورم الخبيث يهجم للمرة الثانية، المرة الثانية ثابتة لا شك، ابني يصدقه، لا يريد أن يفهم أن الأمر بالنسبة إلى ميكانيكي الأعضاء البشرية مجرد صفقة يجب أن تكتمل... زوجة ابني تغالب دمعها كل صباح وتحكي لي أحلام الشفاء... أبدا، أبدا لا يمكنني الوثوق، صارت للشك جحور في القلب...

لا يمكن للجسد أن يعيش خارج أمده، الجسد كما البطارية، أذكر لما كنت أدرس بالبادية البعيدة، لم يكن لدينا من مؤنس غير المذياع، أحيانا كانت بطاريته تجف في عز أيام المطر، ولم يكن بوسعنا الخروج لشراء أخرى جديدة، كنا نضغط البطارية بواسطة مطرقة أو أي شيء صلب ثم نعيدها إلى وضعها، يتحرك صوت المذياع بعد ذلك لكنه يعود للحشرجة بعد فترة قصيرة، كررنا ذلك ثلاث مرات قبل أن يتداعى المذياع بكامله...

الجسد كما البطارية، كما محرك السيارة، كما الهاتف النقال

ولا شيء غير هذا، عليك أن تتخلص منه مع أول أزمة وإلا فإنه سيتعبك لا محالة، جسدي لم يكن إلا كذبة، كذبة كبيرة، بين ليلة وضحاها تحول إلى قمامة...

آه لو أستطيع النوم ولو لساعة واحدة فقط، ركبتي تتفسخ ورائحة النفتالين هذه تخز القلب كإبر مسمومة، ذاكرتي تنزلق بإصرار لعين نحو كل ما هو مأساوي، الأغبياء لماذا لم يصنعوا حتى الآن دواء للنسيان؟ دواء تشربه فينسيك كل شيء، أي شيء، دواء تشربه فينسيك نفسك، حتما سيكون أجدى من كل ذلك العلقم الذي أتجرعه ليل نهار...

لا أريد أن أتذكر، الصور تترامى أمامي كمتاهة حقيقية، المستشفى اللعين الذي لا تهدأ الحركة فيه، أنين المرضى، عجرفة الأطباء، رائحة الطعام الأصفر الذي يبعث على القيء، الفراش النتن الذي تختلط فيه رائحة البول بالقيء بالرطوبة بالبراز، يد موظف الأمن بالسفارة الفرنسية تتحسس جسدي، صوته وهو يصرخ: Reculez, Reculez [4]...، اليد الرخامية تمد جواز السفر، الصوت غير البشري Désolé, on ne peux pas vous accordez un visa...

(4) إلى الوراء إلى الوراء!

«المرض ليس عيبا» يلفظها الناس ببلاهة ويدعونك للصبر، يدي ترتعد وهي تمضي ورقة التخلي عن ملكية البيت الذي عشت فيه أربعة وعشرين عاماً... آه... آه يا سي أحمد كم أعتذر منك، أعرف أنه ما كان علي أن أوافق على بيع البيت الذي دفعت حياتك ثمنا له، أعرف، لكنه عناد ابنك وإلحاحه المستميت ، أتدري ماذا قال لي لما عارضت فكرة بيع البيت، قال: لا أفعل إلا ما كان سيفعله أبي لو كان بيننا.

أحقا كنت ستفعل هذا يا سي أحمد؟ المعذرة، أعرف أنك لا تطيق هذه الأسئلة المتشككة، إنها تسحبنا سحبا عنيفا إلى الوراء، هذا ما كنت تقوله لي أليس كذلك؟ لكن كان عليك أن ترى ذلك الوثوق الذي غلف به لهجته وهو يقول إن حياة البشر أهم ألف مرة من حياة الحجر، حينها أحسست كما لو أنك تقف أمامي تلك الليلة التي قررت فيها بيع محل الكتب لتشتغل كسائق تابع لوكالة الأسفار السياحية، كلماتك زلزلت ماضيا جميلا أثثت تفاصيله في داخلي بعناية وحدق، كنت مصمما ولم يكن من داع لأعارضك... بعد صمت ثقيل فاض قلبك المثخن، قلت كلاما كثيرا، قلت إننا لا نعيش في زمن الكتب، ربما كان عليك أن تقول يومها إننا لا نعيش في

زمن السعادة يا سي أحمد، ما آلمني أنني حاولت أن أشرح لهم كيف أن الأمر لا يتعلق بالحجر، حاولت أن أفهمهم أن المنزل الذي يطلبون مني بيعه ليس حجرا فقط...

قلت لهم كل شيء يمكن أن يخطر ببالك، قلت لهم إنك سددت مبلغ التسبيق الأول من ثمن محل بيع الكتب الذي ورثته عن والدك، قلت لهم إنه من أجل تسديد باقي الأقساط اضطررت للعمل تحت إمرة ذلك الفرنسي الجشع، قلت لهم إنك جبت بعربتك كل جيوب هذا البلد تقل سياحا أجانب بعضهم لا يرمي لك حتى كلمة تحية أو شكر، قلت لهم أنك اضطررت مرارا لأن تفترش مقاعد سيارتك قبل أن تقف في الصباح تنتظر الزبائن أمام الأبواب الدوارة لفنادق الخمس نجوم... قلت لهم إنك دفعت القسط الأخير من دمك الذي تدفق على إسفلت الطريق تلك الليلة المشؤومة بتلك المدينة المشؤومة...

(تمسح بعضا من الدمع الذي بدأ يهرب من عينيها)

قلت لهم ما لم أقله لك... قلت لهم إنني دفعت ثمنا لذلك المنزل من حيرتي، من قلقي، من غيرتي، من أعصابي التي كانت تحترق كلما شاهدتك تضبط بذلتك مستعدا لسفر طويل، كنت أخشى عليك من أولئك السائحات

اللواتي يقدمن إلى هنا مستعدات لأن يفعلن كل شيء، كنت أخشى عليك من تنانيرهن القصيرة ومن بشرتهن البيضاء، كنت أخشى عليك من توقهن المحموم نحو سمرة وصلابة الرجال هنا....

لقد قلت لهم كل شيء، كل شيء يمكن أن يخطر ببالك، لكنهم ما كانوا ليفهموا ما كنت أقول، لقد أرهبهم الإحساس اليومي بالنهاية، دوختهم سرعة الانحدار وشدته...

(صمت)

هناك العديد من الأشياء قد تغيرت، لم يعد أمر الحياة سهلا كما كان من قبل، لقد بدلت جلدها على نحو قياسي يا سي أحمد...

(تغني)

«احك يا الراوي احك حكاية [5]

مدا بك تكون رواية

احك لي على ناس زمان

احك لي على ألف ليلة وليلة

وعلى لونجة بنت الغولة

(5) أغنية بعنوان «الراوي» للمغنية الجزائرية «سعاد ماسي».

وعلى وليد السلطان

حاجيتك ماجيتك

وادينا بعيد مدى الدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا فقلبو حكاية

كل واحد منا فقلبو حكاية

احك وانسى بـ اللي حنا كبار

فبالك بـ اللي راحنا صغار

ونكملو كل حكاية

احكينا على الجنة احكينا على النار

وعلى الطير اللي عمرو ما طار

فهمنا معنى الدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا فقلبو حكاية

كل واحد منا فقلبو حكاية

احك يا الراوي كيف ما حكاولك

ما تزيد ما تنقص من عندك

احك ونسينا من هاد الزمان

خلينا فـ كان يا ما كان

كان يا ما كان

حاجيتك ماجيتك

وادينا بعيد مدى الدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا فقلبو حكاية

كل واحد منا فقلبو حكاية»

كنت أريد أن أقول لك شيئا، لكن لا تغضب مني يا سي أحمد... أنا الآن أسكن غرفة بالطابق السفلي لبيت رجل غريب، في الحقيقة هو ليس كذلك، أنت تعرف أنه لا يمكن أن أقبل على نفسي وضعا شاذا كهذا، إنه أب زوجة ابننا، رجل كالسلحفاة لا تسمع له صوتا رغم أنه دائم التواجد بالبيت، قضى جل عمره في فرنسا كعامل مناجم قبل أن يعود ويقفل عليه باب غرفته، يبدو لي وكأنه مدمن كحول، لست متأكدة ، لقد قابلته مرة واحدة فقط لما جاء للترحيب بي في المنزل، لكن هذا ما أوحى إلي به وجهه الأحمر العريض ويده الدائمة الارتعاش، أتدري بمن ذكرني؟ بذلك الشخص الذي اصطحبته معك من المطار ومكث عندنا ثلاثة أيام، ذاك

الذي عاد هاربا من فرنسا بعدما أدخل زوجته الأجنبية المستشفى في حالة غيبوبة بضربة قوية أسقطتها من أعلى الدرج، كنت قد قلت لي بأنه وجدها في فراشه وسط رجلين... أف، كيف يمكن لامرأة أن تفعل هذا؟ لن أنسى أبدا صمت الرجل ووجومه، لن أنسى كيف ظل مصدوما وخائفا... ربما لهذا ذكرني بأبي ليلى، ليلى هي زوجة ابننا، فتاة جميلة وذكية جدا، تمتلك قلبا كبيرا وروحا مفتوحة، لو كتب لك أن تراها لأحببتها بكل تأكيد، أحيانا أرى أنها تنتمي لزمن آخر، ليست من النساء اللواتي لا يهمهن إلا امتلاك رجل كيفما كان السبيل إلى ذلك، يعجبني أنها تعرف تماما كيف تكون امرأة حقيقية، آه لو ترى منظرهما وهما يخرجان للعمل معا ويعودان في المساء معا ضاحكين رغم تعبهما، يمكن لنا أن نكون مطمئنين على ابننا، إنه بأيد أمينة... **(الساعة تدق)** هو وقت الدواء يا سي أحمد.

(تدفع الكرسي المتحرك باتجاه علب الدواء، تأخذ حبات متفرقة ومتنوعة الاستعمال)

أف لهذا الدواء، أحس وكأنه يثقب الأمعاء ثقبا، وهذه المسكنات لا تجدي شيئا، يظهر لي أنها تهيج الألم عوض أن تخمده... لقد تعبت يا سي أحمد، ماذا تنفع العقاقير

جسدا ينزلق نحو الموت بإصرار، وهل ينفع الدواء جثة آثرت الاستسلام؟ الورم الخبيث سكن القلب، لف أذرعه وأخضع آخر ثغور المقاومة...

نسيت أن أقول لك **(تبتسم قبل أن تفاجئها نوبة من الضحك)** معك حق يا سي أحمد، نحن لا نضحك إلا كي لا نبكي، كثرة الهم تنتزع الضحكة رغما عن أنفك...

لقد صرت إرهابية، هكذا قال الفرنسيون، «زهرة حجامي» امرأة خطيرة ممنوعة من دخول التراب الأوروبي، كان عليك أن ترى الوجه الحجري وهو بالكاد يململ شفتيه Désolé, on ne peux pas vous accordez un visa... ، هل يرضيك هذا يا سي أحمد، هل يرضيك أن تتحول قارة الحب إلى امرأة خطيرة... أنا التي لم أدخل مخفرا للشرطة إلا من أجل تجديد بطاقة تعريفي الوطنية أتحول إلى قائدة منظمة إسلامية متطرفة، لقد ذهبوا أبعد من هذا، قالوا إنه سبق وأن نفذت عملية وسط باريس خلفت عددا لا يستهان به من الجرحى... الأغبياء كان عليهم أن يعلموا أنني لم أطأ أبدا أرضا أجنبية، الأغبياء كان عليهم أن يعلموا أنني لم أفكر في استخلاص جواز السفر إلا مرتين، المرة الأولى عندما كنا نخطط أنا وأنت للسفر إلى بيروت واضطررنا للتخلي

عن الأمر بعدما أقرضت نقود السفر لصديق لك وهذه المرة فقط عندما استبد بي الورم الخبيث... أبدا لم أحس بكل ذلك القدر من المهانة، حتى لما داهمتني الحاجة في الفراش لأول مرة، تكفل الخوف بتخليصي من الشعور بالذل، أما الآن وقد قطع الجسد جل الطريق نحو نهايته أجد نفسي وجها لوجه أمام كمية الخزي الثقيلة التي عشتها ذلك اليوم، بدءا من تلك الوقفة جنب حائط السفارة منذ الخامسة صباحا وحتى منتصف اليوم، وجوهنا نحو شمس شتنبر الحارقة، لم يكن مسموحا أن تغادر مكانك، يفهم الكل هناك أنه عليك أن تدخل الحمام وتقلل من السوائل قبل أن تأخذ مكانك جنب الحائط، السماسرة هناك يتاجرون في كل شيء، جنب الحائط صراط حقيقي...

آه لن أنسى أبدا ذلك الصوت الأجش اللعين وهو يصرخ بدون داع Reculez, Reculez...، اليد المتدربة جيدا تجس كل مناطق الجسد قبل أن تسمح بالمرور، لا تتردد في أن تنتزع الخرقة الموضوعة فوق الركبة المتورمة...

بالداخل صمت هائل، كآبة المكان لا تعادلها إلا كآبة المستشفى الذي كنت أرقد فيه، الكاميرات المثبتة في

كل الأماكن تخجلك وتخيفك في آن واحد، الناس منتبهون جيدا لكل حركاتهم، لقد دخلوا منطقة المراقبة الشديدة... بعد وقت غير قليل سمعت اسمي من خلال المكبر، دفعت الكرسي المتحرك باتجاه الشباك، كانت هناك فتاة شقراء، كل شيء فيها منمق كأنها مصنوعة من البلاستيك، مددت لها كمية الأوراق، أعطت لنفسها وقتا كافيا لتصفحها قبل أن تسألني ببلاهة [6] pourquoi voulez-vous aller en France ، لم يكن لدي من خيار، كان علي أن أجيب على كل تلك الأسئلة الغبية، من خلال الزجاج كنت أتابع الوجه البلاستيكي بحثا عن رد فعل ما، عن شيء يمكن قراءته، تأويله، فهمت أن الوجه تدرب جيدا على إخفاء ردود فعله، ذكرني باليد المدربة التي تجس كل مناطق الجسد، بإمكانك المرور غدا، قال الوجه البلاستيكي المدرب... بالخارج فقط عاد فانتظم إيقاع التنفس بداخلي. **(تتنفس عميقا)**

كنت أريد أن أسألك يا سي أحمد، لماذا أصبح الناس على هذا القدر من الخوف؟ إنهم يخافون كل شيء، لقد استبدلوا الأبواب فصارت من حديد، لم يعد مهما أن تكون جميلة ترحب بالواقف عندها وتمنع عنه الشعور

(6) لماذا تريدين الذهاب إلى فرنسا؟

بالغربة، المهم هو أن تكون صلبة وقوية، لم يكتفوا بهذا لقد وضعوا عند كل باب رجل أمن خاص أقنعوه بأن الناس، كل الناس أعداء له، رغم كل هذا ظلوا خائفين، أصبح ممنوعا أن تحدق في عيون الآخرين، أصبح ممنوعا أن تقلص المسافة بينك وبين أي شخص في الشارع إلى أقل من متر واحد، أصبح ممنوعا

أن تحمل حقيبة، أصبح ممنوعا أن تضع حزاما حول خصرك، أصبح ممنوعا أن تنتعـل حذاء يمتد إلى ركبتيك، أصبح ممنوعا أن تحمل عطرك الخاص ومزيل العرق، أصبح ممنوعا أن تطوف أكثر من مرة بمكان أعجبك... لقد صيروها جحيما يا سي احمد.

أعرف أنني أثقلت عليك، أعرف أنك لا تستطيع أن تتحمل كل هذا الألم، أعرف أن هذا يقض مضجعك هناك، لكنك عودتني أن أقول لك الأشياء كما هي، كيف أحجب عنك أنهم قالوا لا on ne peux pas vous accordez un visa...، قالوها بكل وقاحة وصلف، لم يكلفوا أنفسهم عناء أن يشرحوا لماذا.

المغرورون يظنون أنهم سيمنحوننا تأشيرة إلى الجنة، إنها ورقة، مجرد ورقة، لم أستوعب بعد كيف يمكننا أن نبيع منزلا من أجل ورقة، قل لي هل يمكنك أن تستوعب

ذلك يا سي أحمد... ليس أذل من أن تحس صوتك مقموعا، مكسرا، مفتتا بداخلك، أريد أن أفتح فمي واسعا، واسعا لكن كيف؟ كيف لجثة تنتظر الدفن أن تفتح فمها؟ لست سوى جثة يا سي أحمد، حتى لو لم يعجبك أن أقول هذا، حتى لو لم يعجبك أن أصف نفسي بالجثة فلست إلا كذلك، آن لي أن أفتح عيني واسعة على ما يجري من حولي، لست إلا جثة استعصى دفنها، جثة حولت أياماً من حولها جحيما... إنني أبذل جهدي كي لا أشتكي، كي لا أرفع صوتي بالأنين، أن لا أكون متطلبة، أن أمنع رائحة جسدي من أن تفوح في المنزل، لكنني أحتاج إلى من يحملني إلى دورة المياه، يوسف يقوم بهذا، لم أستطع بعد أن أتعود على الأمر، إن رفضت ربما أضطر لقضاء حاجتي في الفراش، أتساءل كيف يمكن له أن يستقبل جسد زوجته بعدما رأى تفسخ جسد أمه...

سئمت الانتظار، أتعبني الجسد الخائن يا سي أحمد، قتلني غرورهم، ربما آن لي أن أستريح، أنت من قلت لي إننا لا نعيش في هذا العالم إلا حين نحبه، لم أعد أحب هذا العالم يا سي أحمد، لم أعد أحبه، لقد انقضى وقت الضيافة ولا بد للغريب أن يؤوب إلى موطنه.

(تدفع الكرسي المتحرك وتفتح أحد الأدراج، تأخذ فستانا أبيض نميز أنه نفس الفستان الذي ترتديه في الصورة)

(وهي تلبس الفستان)

الجو خانق هنا يا سي أحمد، أظن أن رائحة التراب أشهى وأرطب، قرب قبرك تسقط أوراق شجيرات بلون البرتقال المضيء... أنا قادمة، صرت جاهزة الآن... ربما لا يصح أن أغادر دون أن أترك شيئا لابننا يوسف.

(تفتح درجا آخر، تأخذ ورقة وقلما، تكتب)

العزيز يوسف:

بعد أقل من ساعة من الآن ستعود إلى المنزل، ستضع المفتاح في قفل الباب وستنادي باسمي، سيجيبك الصمت، بقلق ستدفع باب الغرفة، سترج جسدي مرة أولى وثانية، ستمد يدا مرتجفة لتمسح بعض اللعاب المتكوم حول فمي، ستفهم حينها أنني غادرت... قاوم حسرتك واحك لي قصة الفيلم الذي شاهدتماه الليلة، تعرف كم أهوى القصص، لا تنسَ أي شيء، اعتن جيدا بالتفاصيل الصغيرة، أعرف أن لك ذاكرة ضعيفة، يمكنك أن تستعين بليلى، فعيون النساء تسقط على أشياء يغفلها الرجال، لن تنكر أني ابتدعت لأجلك كثيرا من

القصص، إنه دورك الآن...

تعرف يا يوسف أن لكل منا حكاية نقتسم بعض تفاصيلها مع الآخرين ونحتفظ ببعض منها لأنفسنا وتلتبس علينا مناطق أخرى شاسعة من هذه الحكاية.

تذكر يا يوسف أن حكاية جميلة هي حكاية لا تنتهي إلا لتبدأ، لا تصدق أن حكايتي قد انتهت، لقد غادرت فقط لأنني بحاجة إلى هواء آخر، خرجت فقط لطلب هواء طري، هناك مكان صالح للإقامة يجرني كمغناطيس، الآن أحسني صبية وقفت بمتجر كتب في المدينة القديمة تبحث عن عنوان ما، لم تدر أبدا أنها ستعود بعد فترة وجيزة لتبحث عن شيء آخر... ثق بي يا يوسف، لا أستطيع أن أرجئ الأمر أكثر، فرح شامل يلفني، يدوخني، الحياة جميلة رغم كل شيء، لكن الطفل قد يكسر كوب الحليب طمعا في ثدي أمه.

انظر إلى الأمر من زاوية أخرى، لديك الآن زوجة تأخذ بالك منها، تنجب طفلا أو اثنين، هناك مبلغ مالي محترم سيمكنك من ترك ذلك العمل المرهق في مركز النداء لتبدأ حياة جديدة...

عذرا إن كنت قد أفسدت ليلتك مرة أخرى.

أمك

(تتحرك باتجاه درج موجود أسفل السرير، تأخذ عقارا يستعمل لقتل الفئران)

لابد من عدد لا بأس به من الحبات لقتل الفأرة الكبيرة...

(يرن الهاتف)

يمكنكم أن تجيبوا على الهاتف، فقط ابلغوا المتكلم أنني قد سافرت، إذا سألكم أين يمكن أن تقولوا له رحلت إلى مكان لا يحتاج تأشيرة...

(تبتلع كمية كبيرة من العقار، الهاتف لا يزال يرن)

ستـــــار